مظاهر الواقعية التفاؤلية
فی ادب نجیب محفوظ و تداعیاته

الدکتور عدنان طهماسبی استاذ مساعد فی قسم الادب العربی بجامعة طهران
و جواد اصغری طالب مرحلة الدکتوراه

(از ص ۲۱ تا ۳۶)

نبذة:

الواقعیة التفاؤلیة مذهب فی عالم الادب اذ انه متجذر فی الفلسفة الماركسیة التی توغلت فی ارجاء العالم خاصة فی اوروبا الشرقیة، و انطلاقاً من هذا المذهب الادبی ظهرت آثار شعریة و قصصیة هامة فی روسیا و فی بلدان العالم الثالث. و من الكتّاب المتمیزین فی العالم الثالث الذین تاثّروا بهذا المذهب، هو نجیب محفوظ الذی كتب اولی رواياته من عام ۱۹۴۵ حتی ۱۹۵۷ علی اساسها. نحاول فی هذا البحث، ان نشیر الی المیزات الرئیسة للواقعیة التفاؤلیة ثم نتطرّق الی هذه المیزات فی آثار نجیب محفوظ القصصیة نموذجاً و ناقل الكفر لیس بكافر مستهدفین من هذا أن ینتبه مترجمو آثار نجیب محفوظ علی خیوط أفكاره تحسباً من الانزلاق فی متاهات غیر محمودة.

الكلمات المفتاحیة: الواقعیة التفاؤلیة، و التاریخیة، و التكاملیة، الانحیاز للعلم و المجتمع البرجوازی، و الحركة الثوریة، و التفاؤل التاریخی.

المقدمة:

يعتبر نجيب محفوظ فی الاوساط الادبية، من الكتّاب الذين تاثّروا بالفلسفة الغربية و الموالين للغرب اذ انه وقف فی مواقع كثيرة الی جانب الغرب. ولكنه فی بداية اعماله الفنية كان متأثراً بمذهب الواقعية التفاؤلية التی تتغذی من ثدی الفلسفة الماركسية و الاشتراكية. ففی هذا المقال نحن بصدد تقديم قراءة جديدة لبعض رواياته، مركزين الضوء علی سماتها الاشتراكية منوهين فی البداية بان المقالة جاءت فی قسمين إذ يتطرق القسم الاول الی الواقعية التفاؤلية و ميزاتها و القسم الثانی يتناول مظاهر هذا المذهب فی روايات نجيب محفوظ. و فی نهاية المطاف نتصفح رواياته الاشتراكية التی ظهرت بين عامی ۱۹۴۵ و ۱۹۵۷ و هی: القاهرة الجديدة و خان الخليلی و زقاق المدق و بداية و نهاية و ثلاثية بين‌القصرين و قصرالشوق و السكرية.

ما الواقعية التفاؤلية؟

نشأتها - الواقعية التفاؤلية هی حصيلة مرحلة أقدم من الواقعية و هی الواقعية النقدية او التشاؤمية التی ظهرت فی فرنسا بقيادة بلزاک. يمكن القول ان للمذهب الواقعی نزعتين هی مذهب فرنسا و مذهب روسيا. الواقعية النقدية نفسها هی وليدة المعركة التی خاضتها ضد الرومانطيقية. و فی هذا التيار من الواقعية يعالج الكتّاب المشاكل و القضايا الاجتماعية و يسخرون منها دون أن يأملوا فی تحسين الاوضاع بل هم متشاءمون لمستقبل مجتمعهم أساساً. الی جانب هذا التيار نجد الواقعية التفاؤلية التی برزت لتسد ثغرة الواقعية النقدية. فالواقعية التفاؤلية التی تعتبر من المذاهب الفنية الحكومية و المدعومة من استالين - قضت علی المشاكل التی كانت سائدة عند مدرسة الواقعية النقدية - بحلولها للقضايا السلبية فی الاعمال الادبية.

فی ۲۳ من نيسان ۱۹۳۲ صدر مرسوم من لجنة الحزب الشيوعی المركزية،

يقضى بحل كل الجماعات و الفئات و المنظمات الفنية و الادبية فى الاتحاد السوفياتى و تأسّس على انقاضه اتحاد واحد تجمّع فيه زعماء الفنون و الادب و الموسيقى. كان هذا الاتحاد تحت رعاية الحزب الشيوعى حيث رصدت الحكومة الميزانية للانتاجات الفنية و فرضت على كل الكتاب و الفنانين ان ينخرطوا فى هذا الاتحاد حتى يتمكنوا من تقديم آثارهم الى الناس. (رضا سيد حسينى، مكتب‌هاى ادبى، ١٣٧٦. ص ٣٠٣). و مكسيم جوركى كان زعيماً لهذه الحركة الحكومية حيث خلف آثار عدة فى الرواية منها: "الأُم" و "كليم سامغين". و من ممثّلى هذة الحركة الادبية فيكتور شولوخوف و فدايف و بوغدانوف.

تعريف الواقعية التفاؤلية - يقول الدكتور صلاح فضل فى تعريف هذا المذهب الادبى: "الواقعية التفاؤلية عبارة عن منهج فنى يتمثل جوهره فى الانعكاس الصادق المحدد تاريخياً للواقع فى تطوره الثورى، أى فى مسير المجتمع نحو الشيوعية، و تقتضى الواقعية التفاؤلية من الفنان ان يحقق بوعى هدفاً معيناً هو تربية الانسان بروح الشيوعية، و العون الفعال فى التحول الثورى للواقع بوسائل فنية، و بناء مجتمع جديد، و النضال من أجل السلام و الديموقراطية و الاشتراكية و صياغة الانسان الجديد الذى يتمثل فيه تناسق الثراء الايديولوجى و الجمال الروحى و الكمال الجسمانى" (منهج الواقعية فى الابداع الادبى، ١٩٨٨، ص ٩٠).

خصائصها - للواقعية التفاؤلية كمذهب ادبى، خصائصها الخاصة، وللوقوف على معالمها نتعرف عليها اجمالا. و النقطة التى تسترعى الانتباه فى معرفة خصائص هذا المذهب، هى معرفة خصائص اعمال جوركى الادبية و مساهمته لتتويج هذه الحركة.

فمن هذه الخصائص أن الواقعية التفاؤلية اظهرت تناقضات مجتمع المذهب الواقعى و عالم الانسان نظراً الى الوعى التاريخى و النقدى الذى يرتبط بمتطلبات المجتمع ارتباطاً معقّداً و الواقعية التفاؤلية تنتقد المجريات و العالاقات السائدة و

ایضاً کل العوائق فیما یتعلق بالملکیة فی سبیل رقی المجتمع الحر لتتویج المساواة. (بوریس ساچکوف، رئالیسم و تکامل تاریخی آن، ۱۳۶۷، ص ۴۲).

وفی هذا الصدد یقول الدکتور صلاح فضل :"القصة الاشتراکیة تُحقق هدفها علی الوجه الاکمل عندما تحطم الاوهام التقلیدیة الشائعة، عن طریق الوصف الامین للظروف الواقعیة، فهی بهذا تهزّ من الاعماق تفاؤل العالم البرجوازی، مما یجعل الشک فی القیمة المطلقة لما یحدث بالفعل امراً لا مفر منه لکن دون ان تشیر بأی شکل مباشر الی حل ما. بل علی العکس من ذلک، تتفادی من اتخاذ موقف ینحاز بوضوح الی الهدف الاصیل" (ص ۷۴).

و یمکن القول ان المبادئ الجوهریة لهذا المذهب هی الامانة للحقیقة التاریخیة الحزبیة و القومیة، و الالتحام العمیق بالحیاة و الواقع و ابداع شخصیات نموذجیة فی مواقف نموذجیة، و البرهان علی الطابع العام لعملیات التحول الاجتماعی من خلال صور فردیة للاشخاص و الاحداث و تحلیل العلاقات الاجتماعیة بطریقة لاتعکس فحسب اتجاهات الماضی و الحاضر و انما تشیر ایضاً الی طبیعة تطورها فی المستقبل، إذ ان الفنان الواقعی انطلاقا من رؤیته للحیاة یستطیع ان یکتشف القوی المحرکة للمجتمع و ان یبنی منظوره للمستقبل علی أساس واقعی علمی، لاعلی اساس مثالی خیالی کما کان یقوم به الواقعیون النقدیون فی نظرتهم للتطور الاجتماعی. و من هنا نصل الی جوهر الرومانتیکیة الثوریة داخل الواقعیة التفاؤلیة و تفاؤلها التاریخی الصادق، و انطلاقاً من هذه الرؤیة فان الواقعیة التفاؤلیة تجد الجوانب الایجابیة و تبنی مثالها علی اساس علمی". (ن. م. ص ۹۰). هذا حسب اصحابها.

و التاریخیة الواعیة من الخصائص الرئیسة للواقعیة التفاؤلیة اذ هی عبارة عن معرفة اتجاه اصیل فی تکامل العلاقات الاجتماعیة بواسطة الکاتب و اعتقاده بأن النظام الرأسمالی علی وشک الانهیار (بوریس ساچکوف، تاریخ رئالیسم؛ پژوهشی‌در ادبیات

رئاليستى از رنسانس تا امروز، ١٣٦٢، ص ٢٤٠ و ٢٥٩).

إن النقد اللاذع للاخلاقيات فى المجتمع الرأسمالى من خصائص هذا المذهب حيث ينتقد الكاتب الافراد و الشخصيات و اخلاقهم فى المجتمع الرأسمالى و يدعو الى المجتمع الاشتراكى و يبشّر به (ن. م. ص ٢٤٩).

ويتم فى الاعمال الادبية التفاؤلية، عرض البيئة بصورة توافق الحقيقة التاريخية و التكامل فيها ناتج من صراع الاتجاهات الاجتماعية المختلفة الذى يؤثر فى حياة الشخصيات و صلاتهم. و الانسان فى هذه الاعمال لايظهر كتابع لبيئته بل يظهر كمبدأ فاعل فى التكامل الاجتماعى و القوة المحركة للتاريخ. (ن. م. ص ٢٥١). فى خضم هذا تتجسد الابطال و الشخصيات بصورة لاتبلغ سلم المعنوية و الفكر فحسب بل تنال قسطا اعلى من الوعى الاجتماعى (ن. م. ص ٥٤).

و تكامل شعور الانسان الاجتماعى هو الموضوع (Theme) الطاغى فى الواقعية التفاؤلية (ن. م. ص ٢٥٧). و يجب الا نغفل ان التنافر بين النُظُم الاجتماعية البالية و التقاليد القديمة و بين حاجات الانسان الحقيقية هو من ابرز ميزات هذا المذهب (ن. م. ص ٢٦٢). ناهيک عن تغير اوضاع القرى و ردم الفجوة بينها و بين المدن، حيث تجسد اصعب و اعقد القضايا الاشتراكية التى من شانها حل الكثير من المشاكل الاقتصادية و التنظيمية و النفسية و الاخلاقية، و هذا التغيير هو الموضوع الرئيسى فى الادب الاشتراكى (ن. م. ص ٢٧٦).

يذكر ان الواقعية التفاؤلية يجسد التنافر بين غريزة الملكية و مقتضيات المجتمع الاشتراكى الذى يكشف عن اهم تناقضات الحياة (ن. م. ص ٢٧٧).

كما اسلفنا، ينبغى ان نبحث عن سمات الواقعية التفاؤلية ايضاً فى اعمال جوركى الادبية. ويعرف القارئ بان النقد الشامل عن الرأسمالية فى آثار جوركى مشفوعا بالترحيب الخالص للنظام الاشتراكى و النقد هذا فى اعمال جوركى ياتى على اساس التحليل الجامع و الشامل للحياة الطبقية و تجسيد علاقاتها. و سجلت لاول مرة

اعماله فی الادب العالمی آفاق التکامل الاجتماعی و التی تتطابق مع حرکة التاریخ. (ن. م. ص ۱۸۲ و ۱۸۴).

و یری القارئ أن جمهور الناس فی آثار جورکی بمثابة قوة تخلق التاریخ و جمیع الثروات المادیة و الروحیة و یری الاخیر أن وعی عامة الناس، هو مصدرعنصر کبیر فی خلق و تکامل الثقافة. و القضیة الاساسیة التی یهتم بها جورکی هی قضیة حریة الانسان من کل الوان العبودیة المعنویة و المادیة. (ن. م. ص ۱۸۷). و بما ان جورکی من اساتذة التحلیل النفسی فاستخدمه لابداء القوة الخفیة فی ارواح الناس و افکارهم الکامنة فی حین هولاء فی ظروف حیاتهم الطبیعیة لایجدون فرصة لتبلورها. (تاریخ رئالیسم. ماکس رافائل، ۱۳۳۷، ص ۲۳۹). و نقطة البدایة فی اعمال جورکی الاصیلة، هی تصویر الانسان الذی انفصل من طبقته الاجتماعیة نتیجة تطور الرأسمالیة. فیشیر جورکی للصور الفظیعة و المروّعة لهذا الانسان مبیناً ظروف طبقة العمال و الفلاحین و المهنیین الذین تحولوا الی برولتاریا (گئورگ لوکاچ، پژوهشی در رئالیسم اروپایی، ۱۳۷۳، ص ۲۵۶). و یعتبر جورکی انهیار ایدیولوجیات روسیا القیصریة خاصة الدینیة منها، مسألة مفصلیة للوصول الی المجتمع الاشتراکی (ن. م. ص ۲۵۶).

أضف الی ذلک یعرض جورکی فی جانب من اعماله - و لعلهُ الاهم - "کلیم سامغین" صورة شاملة من الفلسفة الماارکسیة التی تاثر بها المثقفون الروس عمیقا(ن. م. ص .)۲۵۸والمعروف ان التفاؤل التاریخی من المیزات البارزة فی اعمال جورکی حیث تمخضت عن مشاهدة مسیرة التکامل الاجتماعی التی لمسه وجرّبه فی حیاته (بوریس ساچکوف ۱۳۶۲ ص ۱۸۵).

من الجدیر هنا ان نذکر بعض النقاط حول خصائص الواقعیة الاشتراکیة. فعن الاخلاقیات فی المجتمع البرجوازی و النظام الرأسمالی یجب القول انه علی خلاف ما تقوله الاشتراکیة، لا تنحصر الرذائل الاخلاقیة بالمجتمعات البرجوازیة و

الرأسمالية و النظام الطبقى بل تستشرى هذه الظاهرة فى المجتمعات الاخرى و منها المجتمعات الاشتراكية بين عامة الناس و الحكام.

و عن قضية الملكية التى يطرحها الاشتراكيون؛ تجدر الاشارة الى ان الملكية الخصوصية اذا تأتى من طريق صحيح لا تؤدى الى الظلم فحسب بل سيكون سبباً فى ازدياد دوافع الافراد للعمل أكثر فأكثر وكما نرى فى التاريخ، المواطن فى المجتمعات الاشتراكية لا يتوقون الى العمل و الرقى.

الواقعية الاشتراكية فى أدب نجيب محفوظ

ولد نجيب محفوظ فى عائلة من الطبقة الوسطى و عاش فى كنف بيئة عائلية مستقرة. ولقد رعى والداه اهتماماته الثقافية وبخاصة منها اهتمامه بالتاريخ القديم. وقد أبدى محفوظ ايضاً اهتماماً بالسياسة وكرة القدم والشعر. بعد ذلك بدأ يقرأ قصصاً بوليسية و تاريخية غربية مترجمة الى اللغة العربية، ثم قرأ اعمال الكتاب المصريين البارزين. وبعد ان انهى تعليمه الرسمى، ركز قراءته على روائع الادب الغربى. بدأ محفوظ ممارسته الادبية وهو فى المدرسة الثانوية، فكان يكتب مقالات متنوعة وبعض القصص القصيرة. بداية كان يفضل الكتابة فى الفلسفة على الكتابة فى الادب، لكنه وبعد ان رأى قصصه القصيرة تأخذ طريقها الى النشر، غيّر توجهه واختار الكتابة القصصية فقط (مجلة الجديد، العدد الثالث عشر، ربيع ١٩٩٧ ص ٢٤).

تمثل اعمال نجيب محفوظ نموذجاً مصغراً لمراحل تطور الرواية لا فى العربية وحدها بل فى غيرها من الآداب العالمية: بدءاً بالرواية التاريخية التى تمثل مرحلة الرومانس والسير والقصص و المغامرات فى تاريخ هذا الجنس الادبى، ثم انتقال الى مرحلة الواقعية وتصوير حياة افراد عاديين اتخذهم جميعاً من ابناء المدينة، ومدينة القاهرة بالذات، ومن فئة البرجوازية الصغيرة المتطلعة دائماً مثل من يعلوها فى السلم الاجتماعى.

استنفد محفوظ امكانيات الرواية الواقعية المعاصرة فيما يقرب من عشر سنوات، فعبرها الى مرحلة جديدة، يمكن ان نسميها مرحلة ما بعد الواقعية، وهى المرحلة التى لحق بها بركب الرواية الحديثة فى العالم، وجعل من هذا الجنس الادبى فى العربية أداة فنية راقية، تنقل الينا رؤيا فنية و فلسفية تتناسب فى تعقيدها ونفاذها مع العصر الذى نعيش فيه(نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية، ٢٠٠١ ص ١٢).

وعلماً بأن بعض المعتقدات الغربية، مثل الاشتراكية والرأسمالية لقيت قبولاً لدى المثقفين، الا ان محفوظ تطلع الى نظام يحقق المساواة؛نظام يفيد الاغلبية ولا يستفزّ المسلمين المؤمنين، أو هو نظام يقع ما بين الرأسمالية والشيوعية. وأخيراً استقر رأيه على ضرورة نظام اشتراكى معتدل، غير أنه اعترف بأن الاشتراكية التى تحقق للانسان حاجاته المادية، لا تستطيع تحقيق سعادته الروحية (مجلة الجديد، ص ٢٤). و هذا ما يعزّز دور الدين فى حياة الانسان و سعادته الدنيوية و الاخروية.

نشيرفى هذا القسم بصورة موجزة الى أهم جوانب الواقعية التفاؤلية أو الاشتراكية فى اعمال نجيب محفوظ و هذه الجوانب عبارة عن الاشادة بالاشتراكية و الماركسية، التاريخية و التكاملية، و العداء السافر للخرافات الدينية و حب العلم والولوع به، و الاخلاق فى المجتمع البرجوازى، و الحركة الجماعية و الثورية و اخيراً التفاؤل التاريخى حيث تتوزع كل هذه الامور فى آثار نجيب محفوظ. يقول الدكتور على شلش في هذا الصدر ان محفوظ كتب مقالة بعنوان "احتضار معتقدات وتولد معتقدات" طرح فيها اربعة محاور رئيسة فى فكره وان هذه المحاور لم تغب عن كتاباته بعد ذلک وهى كما يلى :

١ـ حياة البشر محكوم عليها بالتطور والتغير، والتطور شرّ لا بد منه.

٢ـ الانسان بطبيعته مؤمن.

٣ـ التوسط بالاشتراكية بين الرأسمالية والشيوعية.

٤ـ مستقبل الانسان مظلم(نجيب محفوظ الطريق والصدى، ١٩٩٠ ص ١٢).

فنراه يشيد مباشرة بالاشتراكية و الماركسية فى قصصه. فهو فى السكرية يدعو الى "مرحلة جديدة من التطور و مدرسة اجتماعية" لانه يذهب الى ان استقلال مصر ليس بالغاية الاخيرة و لكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية و الاقتصادية و الانسانية (راجع السكرية، د. ت. ص ٩٠) و يؤكد محفوظ على لسان احد ابطاله فى السكرية: "ادرس الاداب كما تشاء و اعن بعقلك اكثر ما تعنى بالمحفوظات و لاتنس العلم الحديث. و لايجب ان تخلو مكتبتك - الى جانب شكسبير و شوبنهور - من كونت و دارون و فرويد و ماركس و انجلز". (ن. م. ص ٩١).

وكما نعلم، فلسفة ماركس فلسفة مادية يرفض فيها الماورائيات و الميتافيزيقيا. و محفوظ يمدح ماركس و نظريته حول قضية الاجتماع العلمى و إضافة لكل هذا يتكلم عن ماكسيم جوركى و يثنيه (ن. م. ص ٢٠٩، ٢١٠ و ٢١١).

و فى رواية القاهرة الجديدة يتحدث محفوظ لنا عن مبادئه: "الايمان بالعلم بدل الغيب و المجتمع بدل الجنة و الاشتراكية بدل المنافسة" (القاهرة الجديدة، د. ت. ص ٩).

التاريخية و التكاملية ايضاً من مظاهر وملامح الاشتراكية فى ثلاثية نجيب محفوظ اذ نرى فى هذه الروايات الثلاثة تاريخ حياة عائلة من القاهرة. العائلة تتألّف من أب متمتع بالسلطة الابوية و الاولاد الخمسة هم: ياسين و فهمى و كمال(هو نجيب محفوظ بالذات) و خديجة و عائشة و الام هى أمينة. يجسّد محفوظ فى اطار هذه الروايات، كيف يتغير الزمان و الاولاد و كيف يتكامل الابناء حتى ينتهجون مناهج مختلفة بالنسبة الى آباءهم و يسيرون فى جادة العلم و الهروب من التقاليد القديمة.

فهمى احد ابناء احمد عبدالجواد على العكس من ابيه المنعزل عن السياسة يدخل فى ميدان السياسة المكشوفة و يناضل لاجل حرية مصر ضد الاستعمار البريطانى الذى يجسد مرحلة متكاملة من الرأسمالية و اخيراً يقتل فى سبيل الحرية. و تكامل فهمى بالنسبة الى الجيل الماضى الذى يتعلق ابوه به يبرز فى ازدياد وعى الابن الاجتماعى و حركته فى سبيل الحرية و امحاء الاستعمار الرأسمالى. و كمال

الابن الاخير لاحمد عبدالجواد يقضى مراحل مختلفة من عمره و عندما يبلغ اشدّه يرفض آراء ابيه التقليدية و ينحاز الى الفلسفة الماركسية و نظريات فرويد و دارون. و خديجة بنت أمينة التى كانت سجينة البيت تختلف تماماً مع امّها و عندما تتزوّج تشاجر زوجها و حماتها و عائشة على العكس من أمها و أسرتها لاتملک اى ميزة دينية و تدخل مع زوجها فى اوساط اللهو و المجون.

اما ياسين اكبر ابناء احمد عبدالجواد و اشبههم بأبيه يتزوج زينب و كمثل أبيه ينتهج سبيل المجون و انطفاء نار الشهوة من طرق مختلفة ولكن جيله يتفاوت مع جيل ابيه اذ أن زوجه لاتطيق هذا الوضع و تطلب منه طلاقها (بين القصرين، د. ت. ص۳۲۸).

اما الاختلاف الاخير بين ياسين و ابيه هو ان ياسين الذى يتعلق بالجيل الجديد يجوز عنده ان تكون زوجته عاهرة فيعشقها و يريد من ابيه ان يطلب يدها (قصر الشوق. د. ت. ص ۶۸). و هذا يخالف تماماً أخلاق ابيه الذى سجن زوجه فى البيت. هنا يظهر جوانب تكامل الاب فى اطار التاريخ اذ يبدو أن احمد عبدالجواد الذى يتميّز بتقاليده الدينية المتشددة لان مع كرور الزمن و لايعارض ياسين فى قضية زواجه مع مريم العاهرة. ايضاً بعد مضىّ عقود لايعارض احمد عبدالجواد خروج زوجه من البيت. (ن. م. ص ۱۲۴ و ۱۶۸).

اما مواجهة كمال و ابيه حول مسألة التكامل الداروينى، تعتبر أهم نقطة فى الثلاثية، الذى يظهر فيها اختلاف الاجيال و التكامل و اعتقاد الكاتب نجيب محفوظ بالتكاملية الداروينية. فى حوار بين كمال و احمد عبدالجواد يفضى محفوظ عن رأيه حول الدين و التكامل الداروينى حيث ان الداروينية ترى أن اصل الانسان كان قرداً و هذا يعارض آراء الاديان المختلفة التى تعتقد بآدم و حواء. (ن. م. ص ۳۴۵).

ونرى فى زقاق المدق ايضاً صورة هامة من التكامل و هى ان حسين - ابن اسرة قديمة و فقيرة - يعزم عزماً صادقاً على نبذ ماضيه مهما كلفه الامر و ينازع اباه لانه يريد ان يحيا حياة أخرى (زقاق المدق، د. ت. ص ۱۱۱).

و من ميزات المدرسة الاشتراكية فى اعمال محفوظ هى الدين و الخرافات الدينية. يشكو محفوظ من التطرّف و التشدّد فى الدين و الذى يصب فى خانة التخلّف (ن. م. ص ١٣٨ و ١٦٠) و لايقبل محفوظ مسألة زيارة القبور و ضريح الرموز و ينتقدها تاسيساً على معتقداته السياسية (ن. م. ص ١٦٩).

ويرى محفوظ أيضا ان الدين يخالف غرائز الانسان و طبيعته (ن. م. ص ٣٢١). و يؤكد ان انطباعات عامة الناس من الدين تنتهى بعد زمن الى الخرافات الدينية (ن. م. ص ٤٠٦). أضف الى ذلک ان الدين ايضاً يسبب انعدام وعى الناس التاريخى و الاجتماعى (ن. م. ص . ٤٢٧).

لا شک أن آراء محفوظ هذه، مرفوضة تماماً من وجهة نظر كاتبى المقالة اذ ما يقدمه محفوظ كشاهد لتضاد الدين و غرائز الانسان يكتب للانسان الفساد الاخلاقى لا غير. و المعروف أن الدين بذاته يخالف الاباحية و اتّباع الشهوات و ينير الطريق الصحيح لارضاء الغرائز. و بالنسبة الى آراء محفوظ عن الدين و تغييره الى الخرافات والتى حالت دون الوعى الاجتماعى و التاريخى لنا أن نقول إن هذه الاراء منبثقة عن عدم معرفته للدين. و يرى كتّاب "المقالة اذا اندمج العلم و الوعى الاجتماعى فى المجتمعات الدينية مع الدين، لن تحلّ الخرافات مكان الدين ابداً. ناهيک أن الدين يدعو دائماً الى العلم و أن الدين نهض بالمسلمين وعياً و علماً حيث تجسّدت من خلال الفتوحات الاسلامية فى صدر الاسلام و فى الحروب الصليبية و أخيراً فى الثورة الدينية عام ١٣٥٧ هـ. ش (١٩٧٩ م.) فى ايران. علماً بأن نجيب محفوظ الكهل يعترف اكثر من مرّة بأنه "مؤمن بالله وكتبه و رسله و... و انه يؤدى واجباته الدينية، و انه لا يقصد فى رواياته أن يسئ الى الدين "(نجيب محفوظ بين الايمان و الاحاد، ص ٥). بل المقصود من كل هذا أن يفضح الذين استغلّوا الدين كوسيلة لوصول مأربهم. رغم هذا نقول على الروائى ان لا يفسد الناس بانجراره فى دوامة تزعزع ايمانهم و هذا ما نأخذه على نجيب محفوظ و من حذاه.

و یتطرّق محفوظ فی اولاد حارتنا الی مسألة تحریف الدین و یری ان الدین بعد مدة من ظهور الانبیاء و الرسل یتعرض للتحریف أو یحذف من المجتمع و هناک صراع ابدی بین الانبیاء و الحکّام مخلفاً اخفاق الدین فی هدایة البشر (اولاد حارتنا، ۱۹۹۷، ص ۲۳۰ و ۲۴۳ و ۲۴۴ و ۲۷۵). اما محفوظ نفسه فیعارض هذا و یبدد هذه الافکار لیقول بأنه حتی فی اولاد حارتنا لا یعارض القیم الدینیة.

و مهما کان، نری ان الدین یضرب جذوره فی فطرة الانسان و بالرغم من ان الانسان یمکن ان ینسی الدین فی مرحلة من حیاته بسبب انغماسه فی الشؤون المادیة او یفتقد الدین دوره الاساسی فی مرحلة من التاریخ و الظروف الزمکانیة، بید أن التاریخ یشیر الی أن الدین ما حذف من ساحة حیاة الانسان قطّ. و المعلوم أن الصراع الابدی بین الانبیاء و والحکام ناتج عن ماهیة الادیان السماویة التی تدعو الی هدایة البشر مسجلاً لنا تضحیات الانبیاء فی هذا السبیل. اما ما سمّاه محفوظ ب"اخفاق الدین فی هدایة البشر" مرفوض تماماً فی نظرنا اذ یؤکد القرآن الکریم ان الفوز النهائی یکون للمتدینین الصادقین. أضف الی ذلک ان دراسة اجمالیة فی تاریخ الاسلام تظهر بوضوح تأثیر الدین الاسلامی فی رقی البلدان العربیة و ایران و نهوضها و ظهور الحضارة الاسلامیة المتألقة فی القرنین الثالث و الرابع للهجرة.

هذه غیض من فیض عن آراء نجیب محفوظ الشاب حول الدین، التی ترتبط ارتباطاً وثیقاً بالفلسفة المارکسیة التی تعتبر اساس المدرسة الاشتراکیة و لضیق المجال نغضّ الطرف عن کثیر من آراءه فی هذه المسألة.

و القضیة الاخری فی الادب الاشتراکی و اعمال محفوظ ، هی الاخلاق فی المجتمع البرجوازی و النظام الرأسمالی. یفضح محفوظ المخازی الاخلاقیة فی المجتمع البرجوازی و یکشفها عاریة. یتکلم محفوظ فی بین القصرین عن الغرور و الزهو فی شخصیة احمد عبدالجواد عند ما یرید ان یزوج احدی ابنیته (بین القصرین، د. ت. ص ۱۵۱). یشیر الکاتب ایضاً الی النفاق و الریاء فی شخصیة احمد عبدالجواد و

يلومه (ن. م. ص ٢١٥). ثم يستعرض التناقضات النفسية فى افراد النظام الرأسمالى و المجتمع البرجوازى و يضحک عليها عندما يصوّر تعاطى احمد عبدالجواد مع حفل عرس عائشة احدى ابنتيه (ن. م ص ٢٤١).

الاستلذاذ عند البرجوازيين و تأجيل التوبة بسببه هى ايضاً من القضايا المطروحة فى بين القصرين (ن. م. ص ٢٨٩). و يذهب محفوظ الى أن الكذب فى المجتمع البرجوازى و النظام الرأسمالى لايعتبر رذيلة اخلاقية و البرجوازيين يجاهرون به فيما بينهم و بين أنفسهم (ن. م. ص ٤٠٠). و يهزىء فى خان الخليلى من الكذب فى المجتمع البرجوازى: "كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها! فأين أنتم من كذب التجار و الساسة؟! كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التى تشاهدون آثارها فى معترک الحكومة و البرلمان و المصانع و المعاهد". (خان الخليلى، د. ت. ص ٦٣).

و النقطة المفصلية حول مسألة الاخلاق البرجوازية فى اعمال محفوظ هو اعتناق الكاتب نظرية ماركس حول الاخلاق و هى ان الاخلاق مختلفة لدى الافراد و ان هذه ظاهرة تنبعث من باطن الانسان و لايمكن فرضها من الاعلى (ماركس و آزادى، ترى ايگلتون، ١٣٨٣، ص ٣٢). فلهذا نشاهد مظاهر هذه النظرية فى ثلاثية محفوظ بكثرة و التى أخذت مساحة كبيرة منها، اما أهمها هى الصورة التى عرضها الكاتب عن عبدالمنعم و احمد إبنى خديجة. و عبدالمنعم رجل متدين استمع الى وصايا أمه فى رعاية القيم الدينية ولكن احمد ما استسلم لامّه و انتهج - بالرغم من ضغوط امه - سيرة أخرى (السكريه، د. ت. ص ٧٧-٧٤).

و النتيجة الطبيعية لهذه الميزات فى الادب الاشتراكى، تقديم حل للقضايا المطروحة كالاخلاق و الدين لتحقيق المجتمع الاشتراكى. و هذا الحل هو عبارة عن العمل الثورى لاسقاط كل مظاهر الراسمالية و بلوغ آمال الاشتراكية. و من مقتضيات العمل الثورى، خوض غمار الصراعات السياسية و المظاهرات السلمية و العنيفة. فلذلک نشاهد ان فهمى ابن احمد عبدالجواد يدخل مع غضب جنونى الى النضال

ضد الحکومة التی کانت تقف الی جانب الاستعمار (بین القصرین، د. ت. ص ۳۳۶). اما السبب فی غلیان هذا الغضب الجنونی المتقد فی قلب فهمی، عطشه الی الحریة الکاملة. (ن. م. ص ۳۳۸). و فی هذا العمل الثوری نراه یشارک کل الطبقات و الشرائح و الفئات و الجماعات و طریقتهم، الاضراب و توزیع النداءات و المنشورات و الاخلال فی الطرق و القتال المسلح و غیرها (ن. م ص ۳۱۵ و ۳۳۱ و ۳۱۴ و ۳۴۲ و ۳۴۴ و ۳۹۷). و یؤکد محفوظ أن المظاهرات السلمیة و غیر السلمیة، ستنتهی الی نتیجة مطلوبة و تدفع الحکومة الرأسمالیة الی قبول متطلبات الثّوار (السکریة، د. ت. ص ۴۳). و یعتقد ایضاً ان الناس فی حاجة دائمة الی الثورة لیقاوموا موجات الطغیان التی تترصد سبیل نهضتهم، و هم فی حاجة الی ثورات دوریة تکون بمثابة التطعیم ضد الامراض الخبیثة و الحق ان الاستبداد هو مرضهم المتوطن (ن. م. ص ۳۸). و یقول محفوظ عن معنی الثورة: "ان الحیاة عمل و زواج و واجب انسانی عام... اما الواجب الانسانی العام فهو الثورة الابدیة... انی أومن بالحیاة و بالناس و أری نفسی ملزماً باتباع مثلهم العلیا ما دمت اعتقد انها الحق اذ النکوص عن ذلک جبن و هروب، کما أری نفسی ملزماً بالثورة علی مثلهم ما اعتقدت انها باطل اذ النکوص عن ذلک خیانة، وهذا هو معنی الثورة الابدیة". (ن. م. ص ۲۲۹ و ۳۳۰).

ان التفاؤل التاریخی هو مسألة اساسیة فی الادب الاشتراکی کما انه یعتبر عنصراً یمیز الواقعیة التفاؤلیة عن الواقعیة النقدیة و نری التفاؤل التاریخی فی بین القصرین عند ما ینجح المناضلون فی دعم سعد زغلول و اخراجه من المنفی و اعادته الی میدان السیاسة. و الثورة الابدیة نفسها تشتمل علی التفاؤل التاریخی. و التفاول التاریخی فی ثلاثیة محفوظ تتجلّی بصورة موجزة فی هذه العبارة التی قالها فهمی فی مناضلاته السیاسیة: "سیان أن أحیا او أن أموت، الایمان اقوی من الموت و الموت اشرف من الذل، فهنیئاً لنا الامل الذی هانت الی جانبه الحیاة، اهلاً بصباح جدید من الحریة". (بین القصرین، د. ت. ص ۳۴۳). تعقیباً له یدعو حسنین فی

"بداية و نهاية" الى مصر الجديدة آملاً فی ان يكون المستقبل مبنياً على ماضيه (بداية و نهاية. د. ت. ص ۳۰۷).

نتيجة البحث:

الواقعية التفاؤلية هی مذهب ادبی جاء من روسيا الى العالم العربی وكان مؤسسه مكسيم جوركی و لها ميزاتها الخاصة وهی تتمثّل فی: التاريخية و التكاملية و اعراض عن الدين و الانحياز للعلم و ذم الرذائل الاخلاقية فی المجتمع البرجوازی و النظام الرأسمالی و تشجيع الحركة الجماعية و العمل الثوری و التفاؤل التاريخی.

و هذه الميزات تشاهد فی آثار نجيب محفوظ الشاب منذ عام ۱۹۴۵ حتى عام ۱۹۵۷ و هی: القاهرة الجديدة و خان الخليلی و بداية و نهاية و زقاق المدق و بين القصرين و قصر الشوق و السكرية و أضف الى ذلک أثنى به نجيب محفوظ على الاشتراكية و الماركسية فی هذه الاعمال الروائية التی نشرها علماً بان محفوظ يعتقد بالتكاملية الداروينية المنطوية فی ثلاثيته الحافلة بها فی اطار تاريخی. و فی ثلاثيته ايضاً ينحاز للعلم كما انه يلوم البرجوازيين بسبب أخلاقهم السيئة و يشجع الحركة الثورية لاسقاط النظام الرأسمالی و الطبقی فی حال انه يتفاؤل بشأن مستقبل المجتمع.

المصادر:

۱ـ القرآن الكريم.

۲ـ ايگلتون، تری، ماركس و آزادی، ترجمه اكبر معصوم بيگی، آگه، تهران، ۱۳۸۳.

۳ـ رافائل، ماكس، تاريخ رئاليسم، ترجمه محمدتقی فرامرزی، شباهنگ، تهران، ۱۳۵۷.

۴ـ رايت ميلز، چارلز، ماركس و ماركسيسم، ترجمه محمد رفيعی مهرآبادی، خجسته، تهران، ۱۳۷۹.

۵ـ ساچکوف، بوریس، تاریخ رئالیسم پژوهشی در ادبیات رئالیستی از رنسانس تا امروز، ترجمه محمدتقی فرامرزی؛ تندر، تهران، ۱۳۶۲.

۶ـ ساچکوف، بوریس، رئالیسم و تکامل تاریخی آن، ترجمه علی‌اکبر تقی‌پور، همگام، ۱۳۵۷.

۷ـ سید حسینی، رضا، مکتب‌های ادبی، نگاه، تهران، ۱۳۷۶.

۸ـ شلش، علی، نجیب محفوظ الطریق والصدی، دار الاداب، بیروت، ۱۹۹۰

۹ـ علی حسن، دیب، نجیب محفوظ بین الالحاد والایمان، دارالمنارة، دمشق، ۱۹۹۷.

۱۰ـ فضل، صلاح، منهج الواقعیة فی الابداع الادبی، دارالنهضة العربیة، بیروت، ۱۹۸۸.

۱۱ـ لوکاچ، گئورگ، پژوهشی در رئالیسم اروپایی، ترجمه اکبر افسری، علمی -فرهنگی، تهران، ۱۳۷۳.

۱۲ـ محفوظ، نجیب، اولاد حارتنا، دارالاداب، بیروت، ۱۹۹۷.

۱۳ـ محفوظ، نجیب، بدایة و نهایة، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۱۴ـ محفوظ، نجیب، بین‌القصرین، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۱۵ـ محفوظ، نجیب، خان الخلیلی، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۱۶ـ محفوظ، نجیب، زقاق المدق، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۱۷ـ محفوظ، نجیب، السکریة، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۱۸ـ محفوظ، نجیب، قصر الشوق، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۱۹ـ محفوظ، نجیب، القاهرة الجدیدة، مکتبة مصر، القاهرة، د. ت.

۲۰ـ مجلة الجدید، بیروت، العدد الثالث عشر، ربیع. ۱۹۹۷.

۲۱ـ موسی، فاطمة، نجیب محفوظ وتطور الروایة العربیة، مکتبة الاسرة، القاهرة، ۲۰۰۱.

The Aspects of Optimistic Social Realism in Najib Mahfuz Works

Dr. Adnan Tahmasebi

Tehran University

Javad Asghari

The social realism is a significant literary school. One may notice this school in various forms and works in the world literature.

Its source and origin can be traced in the Marxism philosophy which has influenced the Eastern European peoples. Many works, such as the novels, poems, and plays have been formed on the basis of this school in Russia and the third world countries. Najib Mahfuz is one of these literary figures who have been under this influence and school. Here, it has been tried to mention the various characteristics of social realism and their manifestations in Mafuz's literary works.

Key words: *Najib Mahfuz, optimism, realism, characteristics, philosophy.*